له بعدد كل فصيح وأعجم »؛ وفسره أصحاب الحديث بأن النبي محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد بالفصيح بني آدم ، وبالاعجم البهائم » (١) :

ولا تخرج لفظة «الفصاحة» في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف عن معناها اللغوي وهو الظهور والبيان . وحينما دخلت هذه اللفظة الدراسات البلاغية والنقدية ارتبطت بلفظة البلاغة وصارت صنوها ، وأصبح رجال البلاغة الاوائل لايفرقون بينهما ، بل لم يروا بأساً في أن يستعملوا احداهما مكان الاخرى كما فعل ابوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ـ ٢٥٥هـ) الذي لم يضع حداً فاصلاً بين اللفظتين وانما اجراهما بمعنى واحد في مواضع كثيرة من كتابه « البيان والتبيين » الجاحظ :

عرف الجاحظ البلاغة بقوله : «وقال بعضهم ـ وهو احسن ما اجتبيناه وهوكاه : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك» (٢): وفي هذا التعريف اقتران الفصاحة بالبلاغة، والنص على امتزاجهما.

والفصاحة ـ عنده ـ واسعة المعنى، ولذلك نراه يتحدث عنها وعن الالفاظ كثيراً ، وتعد" اشاراته في كتابه «البيان والتبيين» من اوسع ما وصل الينا من عهد التدوين الاول . ويرى ان الالفاظ جديرة بالرعاية والاهتمام، يقول : «وقد يستحسن الناس الفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجرح الا في موضع العقاب أو موضع الفقر للمنع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السقب ويذكرون الجرح في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لانك لا تجد القرآن يلفظ به الا في موضع الانتقام: والعامة واكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل

(١) النهاية في غريب الحديث والاثر ج ٣ ص ٤٥٠ .
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٥.

انه اذا ذكر الابصار لم يقل الاسماع ، واذا ذكر سبع سماوات لم يقل الارضين: ألا تراه لا يجمع الارض أرضين ولا السمع أسماعا. والجاري على ألواه العامه غير ذلك لا يفقدون من الالفاظ ماهو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال» (١).

وتكلم على تنافر الحروف فقال : «فأما في اقتران الحروف فان الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الذين بتقديم ولا بتأخير ، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الدال بتقديم ولا بتأخير. وهذا باب كبير وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي اليها يجرى» (٢).

وتحدث عن تنافر الالفاظ فقال : «ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر وان كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد انشادها الا ببعض الاستكراه، فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

ولما رأى من لا علم له أن أحداً لايستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج ، وقيل لهم : ان ذلك انما اعتراه اذ كان من اشعار الجن ، صدقوا بذلك .

ومن ذلك قول ابن يسير :

لم يضرها والحمد لله شيء واتت لحر مزف تفسير ذهول

فتفقد النصف الاخير من هذا البيت فانك ستجد بعض الفاظه ينبواً من بعض (٣)

وينبغي أن تكون الالفاظ متماثلة متلائمة كي لايقع بينها التنافر فتصبح كأولاد علّة ، يقول : «وانشدني أبو العباس ، قال : أنشدني عطف الاصمعي في هذا المعنى :

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠.

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٩.

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٩٥.